الملكة زنوبيا ...
فى موكب الأسرى!!

زنوبيا (ملكة سوريا) ملكة تدمر (بالميرا) والشام والجزيرة ، وهـى الزباء بنت عمرو ، سورية وأمها إغريقية وقد كانت زوجة لأذينة ملـك تـدمر المملكة العظيمة التى تنتصب بشموخ فى وسط سوريا الملقـب بسـيد الشـرق الرومانى وملك الملوك ، امتدت سلطته على سورية وسائر آسـيا الرومانيـة ، وكثيراً ما حارب الفرس وردهم عن بلاده ، وكان إذا خرج إلى الحرب أنـاب الملكة زنوبيا لتحكم تدمر بمهارة ، وكانت تدمر (بالميرا) مدينة تجارية تقع فى وسط سوريا فى بادية الشام ، وتحيط بها الجبال ، وكانت محط قوافل الجمـال ومحطة تجارية هامة على طريق الحرير.

وكانت الملكة زنوبيا قد اشتهرت بجمالها وولعها بالصيد والقنص ، قيل عنها أنها ذات رأى وحكمة وعقل وسياسة ودقة نظر وفروسـية وشـدة بـأس وجمال فائق .

وتثقفت بالثقافة الهيلينية ، وكانت تـتكلم الأراميـة (اللغـة السـورية القديمة) وبعض اللاتينية (الرومانية) والإغريقية والقبطية ، وكان لها اطلاع على تاريخ الشرق والغرب ، وكانت تقرأ لهوميروس وأفلاطون وألفت تاريخـاً عن الشرق وسوريا ومصر وآسيا.

ولما قتل الملك أذينة (٢٦٧م) بطريقة غامضة ، تولت الملك باسم ابنها وهب اللات ، وأصبحت زنوبيا ملكة الملكات وتولت عرش المملكة وازدهرت تدمر فى عهدها ، وأنشأت جيشاً قوياً واستولت على العديد من البلدان ، وأصبحت تدمر محط رحال التجار والقوافل ، وزاد ثراء المدينة ونافست روما فى العظمة والفخامة والمكانة ، ولما ساءت العلاقات بينها وبين الإمبراطور الرومانى أرسل الإمبراطور لها جيشه للاستيلاء على تدمر فهزمته شر هزيمة ، بعدها توجهت لمصر وكانت تابعة للرومان واحتلتها ومنعت جيوشها عن روما، وعززت علاقاتها التجارية مع الحبشة وجزيرة العرب ، وتوسعت مملكتها حتى شملت باقى سوريا وأصبحت من شواطئ البسفور حتى النيل ، وأطلقت عليها الإمبراطورية الشرقية (مملكة تدمر) ، لكن الإمبراطور الرومانى أورليانوس حاول التفاوض مع الملكة زنوبيا لوقف زحف جيوشها مقابل الاعتراف بألقاب ابنها وامتيازاته ، فضربت النقود فى أنطاكية والإسكندرية عليها صورة وهب اللات على وجه وعلى الوجه الثانى صورة الإمبراطور أورليانوس .

وعهدت بملك مصر إلى ولدها وأزالت من النقود صورة الإمبراطور ونادت بالاستقلال الكامل عن روما ، فصمم الإمبراطور على التنكيل بها وسحق الدولة التدمرية ، فأرسل جيشاً رومانياً بقيادة بروبوس إلى مصر سنة ٢٧١م وجيشاً آخر بقيادة الإمبراطور أورليانوس نفسه توجه به إلى سوريا وآسيا الصغرى ليلتقى الجيشان فى تدمر وسط سوريا ، احتل بروبوس مصر وبلغ أورليانوس أنطاكية ، فهزم زنوبيا هناك فى معركة دامية ، مما جعلها تنسحب لتدمر ليتعقبها أورليانوس حتى بلغا مدينة حمص ، فدارت بينهما معركة شرسة ، وانهزم جيشها ، ووصل أورليانوس تدمر وحاصر أسوارها المنيعة حصاراً محكماً حتى نفدت مؤن الطعام بها ، وكانت قد حصنت المدينة ووضعت على كل برج من أبراج السور اثنين أو ثلاثة من المنجنيق تقذف بالحجارة المهاجمين

لأسوارها وتمطرهم بقذائف النفط الملتهبة ، والتى كانت تعرف بالنار الإغريقية، وقاومت الغزاة بشجاعة معلنة القتال حتى الموت وعرض أورليانوس عليها التسليم وخروجها سالمة من المدينة التى لن تمس ، لكنها رفضت وحاولت الهروب ووصلت نهر الفرات إلا أنها وقعت فى الأسر واقتديت إلى أورليانوس وهو فى ميدان القتال فأحسن معاملتها ، ثم اقتادها معه إلى روما ضمن موكب الأسرى الذى عرض فى احتفالات باذخة تمجيداً للانتصار عام ٢٧٢م.

انتهت حياتها فى منزل بسيط فى تيبور بإيطاليا أعده لها أورليانوس ، وانتحرت بالسم ، بعدما حكمت تدمر ومصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى حتى أنقرة ، وكانت ملكة لواحدة من أهم الممالك فى التاريخ ... مملكة تدمر.

" بابا نويل " ... هل هو شخصية حقيقية ؟

يعتقد الكثيرون أن " بابا نويل " أسطورة ابتدعها الناس لإدخال السرور على أطفالهم ... والحقيقة أن " بابا نويل " شخصية حقيقية حيث كان أسقفاً بمدينة ميرا بآسيا الصغرى ... وكان يعيش فى القرن الرابع الميلادى ، عرف بحبه للناس والفقراء عامة ، ووصلت شهرته إلى جميع أنحاء العالم ، اسمه بالكامل " سانت نيكولاس " ... ولكن الأجيال اختصرت اسمه حتى يلائم ألسنة الأطفال فاصبح "سانت كلوز" بالإنجليزية و " بابا نويل " بالفرنسية ... وقد ظل يؤدى هذا الرجل واجبه الدينى والإنسانى حتى توفى فى ٦ ديسمبر ٣٤٥ م.

وحتى الآن ما زال الأطفال يحلمون به وينتظرونه فى ليلة عيد الميلاد عند المسيحيين الغربيين ، فيعدون له الأحذية والجوارب ليملأها لهم بالهدايا واللعب ، ويتصوره الأطفال ويصورونه لهم فى شكل رجل عجوز ذى لحية بيضاء طويلة ... يلبس معطفاً ابيضاً وطرطوراً مغطى بالثلج الذى يتساقط ... ويحمل بابا نويل كيساً مملوءاً بالهدايا فوق ظهره ، ولكنه لا يعطى الهدايا لكل الأطفال وإنما يخص هؤلاء المؤدبين المجدين منهم فقط ، أما الذين لم يستمعوا إلى نصائح والديهم فيحرمون دائماً من هداياه ، فإذا جاء الصبح لم يجدوا الهدايا فى أحذيتهم ... وإنما وجدوا بدلاً منها أثراً يدل على أن بابا نويل قد زارهم ولكنه حرمهم من هداياه.

أما الصورة الحديثة لبابا نويل ، فقد ولدت على يد الشـــاعر الأمريكـــى كلارك موريس الذى كتب سنة ١٨٢٣م قصيدة بعنوان " الليلة التى قبـــل عيـــد الميلاد " يصف فيها هذا الزائر المحبب ليلة عيد الميلاد .

وفى عام ١٨٨١م ، قام الرسام الأمريكى توماس نيســـت فـــى جريـــدة هاربرس بإنتاج أول رسم لبابا نويل ، كما نعرفه اليوم ، ببدلته الحمراء الجميلة وذقنه البيضاء الطويلة وحذائه الأسود اللامع مستنداً إلـــى القصـــص الأوربيـــة حوله، وعلى أثر ذلك اشتهرت هذه الشخصية فى أمريكا وبعدها فى أوربا ، ثم فى سائر أقطار العالم ، ومع تغير المكان تخلى بابا نويل عن حماره الذى كـــان يحمل عليه الهدايا والألعاب ليمتطى زحافة على الجليد ويجرها ثمانية غزلان.

الشعراء الصعاليك

الشعراء الصعاليك ... هم مجموعة من شعراء العصر الجاهلى ، وكانوا إما ممن نبذتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم مثل " حاجز الأزدى " ، وإما من أبناء الإماء الحبشيات الذين نبذهم أباؤهم ولم يعترفوا بنسبهم إليهم مثل " تأبط شراً " و" الشنفرى " ... والمجموعة الثالثة لم تكن من المنبوذين من القبائل ولا من أبناء الإماء الحبشيات وإنما احترفت الصعلكة احترافاً مثل " عروة بن الورد العبسى ".

وتتردد فى أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والبخلاء ، ويمتازون بالشجاعة والجرأة والصبر عند البأس ، كما اشتهروا بسرعة العدو حتى سموا " بالعدائين " وضربت بهم فى تلك الأمثال فقيل " أعدى من الشنفرى " ... وتروى عنهم قصص كثيرة فى هذا الموضوع .

وكان الصعاليك يحسنون ركوب الخيل واستخدامها فى الإغارة ... وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الخصب ، كما كانوا يتربصون بالقبائل التجارية وقوافل الحج الذاهبة إلى مكة ، وتغنوا بهذه المغامرات فى أشعارهم ... وعلى الرغم من أن فريقاً من الصعاليك قد عاش سفاحاً لا يرعى

عهداً ولا ذمة ، إلا أننا نجد كثيراً منهم اشتهروا بالبر بالأقارب والأهل والشعور بالكرامة ، وكأنما الصعلكة قد تحولت فى أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية فى أوربا فى العصور الوسطى.

ومن أشهر هؤلاء " عروة بن الورد" الذى قيل عنه أن قبيلة " عبس " كانت إذا أجدبت أتى أناس منهم ممن أصابهم جوع شديد ، فجلسوا أمام بيت "عروة" حتى إذا أبصروه قالوا " أيا أبا الصعاليك أغثنا " فكان يرق لهم ويخرج معهم ليحصل على ما يشبع جوعهم ويكفيهم ... وهو يعبر بذلك عن نفس كبيرة فهو لا يغزو للنهب والسلب " كالشنفرى " و" تأبط شراً " ، وإنما يغزو ليعين الفقراء والمستضعفين حتى أطلق عليه " أبو الفقراء " و " أبو المساكين ".

والطريف أن " عروة بن الورد" لم يغير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يختار لغارته ممن عرفوا بالبخل ، ومن لا يمدون للمحتاج فى قبائلهم يد العون ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم ... وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشئ على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظه سواء شاركوه فى الغارات التى يشنها أو قعد بهم المرض أو الضعف ، وهو بذلك يضرب مثلاً رفيعاً فى الرحمة والإيثار ... وهو يعبر عن نفسه فى هذا بقوله :

إنى امرؤ عانى إنائى شركة	وأنت امرؤ عانى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى	بجسمى شحوب الحق ، والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة	وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

وقد فاق إعجاب الناس بكرم " عروة بن الورد " الحد ، لدرجة أن عبدالملك بن مروان كان يقول : " من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد ".

المعلقات

قصائد اعتبرها العرب أروع ما نظمه شعراء الجاهلية ، واختلف الكثيرون فى سبب تسميتها بالمعلقات ، فقيل سميت بها لأنها كانت بعد نيلها الإعجاب تكتب بخيوط الذهب على الحرير المصرى وتعلق فى أستار الكعبة ولذلك سميت أيضاً " المذهبات " ، ويرد على هذا بأن العرب فى الجاهلية كانوا أميين ... وقيل سميت المعلقات لأنها كانت تسمى " السموط " أى العقود النفسية ومن شأنها التعليق ، وقيل سميت بهذا الاسم لعلوقها بالذاكرة ... كما يذكر البعض أنها سميت فى البداية " الطوال المشهورة ".

وهناك اختلاف فى عددها فقال الغالبية أنها سبعة بينما ذكر البعض أنها عشرة ... وقد أجمع النقاد على معلقات : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن ابى سلمى ، وعنترة بن شداد ، بينما يختلفون حول قصائد عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، ولبيد بن ربيعة ، والنابغة الذبيانى ، والأعشى ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل.

وتمثل المعلقات أنضج صور الشعر الجاهلى شكلاً ومضموناً فأكثرها يبدأ بالوقوف على الأطلال ورحيل الحبيبة ، وهى تصور الحياة الجاهلية ومثلها العليا كما تصور المثل الأعلى فى الفن الشعرى.

العصور الوسطى

استمرت الفترة التى يطلق عليها " العصور الوسطى " ألف سنة وتسمى المئات القليلة الأولى من هذه الفترة بالعصور المظلمة ... ويمكن القول بأن العصور الوسطى بدأت فى عام ٤٧٦ م بانهيار الإمبراطورية الرومانية التى كانت آخذة فى الضعف ، مما اضطرها إلى استدعاء جنودها الذين كانوا يرابطون فى الجزر البريطانية وشمال أوربا وبعض الأجزاء البعيدة عن الإمبراطورية ليحموا روما ، ذلك أن القبائل الهمجية البربرية كانت قد أخذت تتوغل داخل الإمبراطورية آتية من الشمال والشرق ، وبرهنت هذه القبائل على أنها أقوى من الرومان عندما حشدت جيوشها وانقضت على غرب أوربا الذى كان خاضعاً لروما.

وكان هؤلاء البرابرة رجالاً أشداء ومحاربين متوحشين ، فقد نهبوا قصور حكام روما وأتلفوا الطرق المؤدية إليها ، ولم يكن البرابرة يعرفون القراءة والكتابة ، ولم يكونوا يعبأون على الإطلاق بعلوم المصريين القدماء والبابليين ، ولهذا فإن الحياة فى البلدان التى سيطروا عليها لم تكن بأحسن حال من الحياة التى كان يعيشها سكان الكهوف فى العصور المبكرة ... ولكن بمرور الوقت بدأ البرابرة فى الاستقرار فى النهاية وأصبح كثير منهم زراعاً ، ولكن

نظراً لكثرة الغابات فى أجزاء كثيرة من أوربا فقد انتشـــرت فيهـــا عصـــابات اللصوص ، ولما كانت المدن صغيرة ومتباعدة عن بعضها البعض ، فإن كثيراً من الناس كانوا يخشون الخروج من مدينة إلى أخرى للتجارة.

وبينما كانت أوربا تعيش عصورها المظلمة كانت الأجزاء الأخرى من العالم تسير نحو التقدم ، كالمسلمين الذين انتشروا فى الشرق الأوسط وأفريقيـــا إلى أسبانيا ، والصينيين الذين كانوا أكثر تقدماً من الأوربيين ، كذلك نجد فـــى الإمبراطورية البيزنطية ازدهاراً فى الفن والعلم ، وعلى هـــذا فـــإن العصـــور المظلمة كانت مظلمة فى أوربا فقط.

وكان من نتيجة الفوضى التى عاشتها أوربا فى هذه الفترة أن قام نظام الاقطاع الذى أعان الناس على الخروج من الحالة السيئة التى تـــردوا فيهـــا ، فارتبط عامة الشعب بالأسياد الذين كانوا يعيشون فى قلاع ضخمة ، وكان كثير من العامة يعملون عبيداً أو كالعبيد ، وكانوا يسمون " رقيق الأرض " ويقومون بالعمل من أجل السادة دون أن يتقاضوا أجراً عن عملهم سوى الطعام والمأوى ، ولم يكن فى استطاعتهم ترك سادتهم الذين كانوا يقومون بحمايتهم ، وكان قصر السيد أشبه بالقلعة الحصينة.

وكذلك كان عهد الاقطاع عهد الفروسية ، فلقد كان الفرسان يقسمون أن يقولوا الصدق دائماً ، وينصروا الحق ، ويذودوا عن شرف أســيادهم ويحمـــوا الفقير والضعيف .

الغجر

قد لا يعرف الكثيرون شيئاً عن قصتهم الأولى ... ولكن من الثابت أنهم قبائل رحل يتنقلون من مكان إلى مكان ... موطنهم الأصلى شمال الهند ... ومنها انتشروا غرباً إلى الشرق الأدنى ومصر ثم عبروا البوسفور إلى أوربا أثناء القرون الوسطى واستوطنوا بلاد البلقان ... وتحت الضغط التركى انتشروا إلى المجر وبولندا ووسط أوربا حتى وصلوا إنجلترا .

وفى أوربا ظل الغجر يتنقلون فيذهبون إلى الشمال فى الصيف وإلى الجنوب فى الشتاء ، وكانوا يسافرون فى " عربات " تجرها الجياد ، وإذا ما حل الليل أقاموا نيراناً وأخذوا يغنون ويرقصون حولها ... وسرعان ما اشتهروا بتجارتهم فى الخيول ، كما كان بعضهم حدادين مهرة ، ونبغ بعضهم فى الموسيقى حتى أن عدداً من المؤلفين الموسيقيين قد اقتبس موسيقى الغجر فى مقطوعاتهم ... واشتهر الغجر كذلك بقراءتهم للمستقبل .

وقد تبدو حياة الغجر سعيدة جداً لا يشوبها أية هموم ، حتى أن كثيراً من الناس العاديين يتمنون أن يعيشوا مثل هذه الحياة السهلة ... لكن فى الحقيقة أن الغجر لم يعاملوا معاملة حسنة فى كثير من الأماكن ، وواجهوا ظروفاً صعبة ربما لأن الكثير من سمات الغجر وتصرفاتهم لا تروق للشعوب المتحضرة ،

وربما يكون هذا سبباً فى أن المراجع التاريخية تحاول إثبات أنهم ليسوا أوربى النشأة ، وقد أدى ذلك أن تعرض الغجر لممارسات عدوانية من الشعوب المستقرة على مر التاريخ ، وتمثلت الاعتداءات عليهم فى الترحيل القسرى ، وعدم الاعتراف بهم كمواطنين فى البلدان التى يقيمون فيها ، حيث تم ترحيلهم من مناطق عديدة فى أوربا ، وقد تمثلت الكراهية للغجر فى الأمر الذى أصدره ملك بروسيا عام ١٧٢٥م ويقضى بقتل كل غجرى فوق الثامنة عشرة من العمر، والقوانين النازية التى بدأت بإلزام الغجر الذين ليس لهم مهنة ثابتة فى ألمانيا بالعمل القسرى (السخرة) وقد طبق هذا النظام فى عدد من الدول الأوربية وانتهى الأمر بأن وضعهم النظام النازى فى مرتبة متدنية فى الترتيب العرقى للنظام النازى وجمعهم بعد ذلك فى حظائر بأسوار كالحيوانات وقتل منهم أعداداً كبيرة قبل نهاية الحرب العالمية الثانية.

أما المهن التى يمتهنها الغجر فهى تخضع لطبيعة حياتهم المتنقلة حيث لا يسمح لهم بامتلاك الأراضى ، وفى غالب الأحيان تتمثل فى تجارة الحيوانات كالخيول ، وأنواع التجارة الصغيرة المتنقلة ، والصناعات اليدوية ، كما يشتهرون بتقديم الموسيقى وألعاب السيرك.

موقعة اليرموك

كان أبو بكر الصديق قد أرسل خالد بن الوليد على رأس جيش إلى العراق ، ثم أرسل أربعة جيوش إلى بلاد الشام لغزوها من جهات مختلفة ... فأرسل " هرقل " قيصر الروم إلى كل جيش جيشاً يضاعفه فى العدد ... فرأى قواد جيوش المسلمين الأربعة أن يجتمعوا معاً ، وعلم بذلك هرقل فأمر جنوده أن ينزلوا على نهر اليرموك فى سوريا فنزلوا بين النهر وبين واد عميق كأنه خندق يعرف بالواقوصة ، وكان عددهم أكثر من مائتى ألف جندى وكان ذلك عام ٦٣٤ م ... وكان رأيهم أن الوادى والنهر يحميان جانبيهم .

ونزل المسلمون أمامهم على نفس الضفة من النهر ، فصار الروم كأنهم محصورون ولا طريق أمامهم سوى ناحية العرب ... وحفر الروم بينهم وبين المسلمين خندقاً ، وأخذوا يناوشون المسلمين ثلاثة أشهر ، وأرسل المسلمون خلال هذه الفترة إلى أبى بكر كى ينجدهم بنصف جنود العراق ، وبالفعل أرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن ينجدهم بنصف جنوده ، وسار خالد بن الوليد مسرعاً حتى بلغ الشام وانضم إلى معسكر المسلمين ليصبح عددهم حوالى أربعين ألفاً .

ورأى خالد أن رئيس كل جيش منهم مستقلاً برأيه ... فاتفق معهم على

أن يتولى كل أمير القيادة يوماً ، وبدأ هو باليوم الأول ، فعبأ جيشه تعبئـــة لـــم يسبق للعرب مثلها ، وهاجم بهم الروم ، فخرجوا من خندقهم ، وهجم خالد بقلب الجيش ففرق بين فرسانهم والمترجلين منهم ورأى فرسانهم أنهم أصبحوا وســط المسلمين ففروا إلى الصحراء ، ثم أطبق المسلمون على الأعداء فردوهم إلـــى خندقهم واقتحموه عليهم ، وأقبل الليل فلم يوقف المسلمون القتال ، وحاصـــروا الروم فتساقطوا فى الهوة من جانب وفى النهر من جانب آخر ، وتـــم النصـــر للمسلمين ولم ينج من الروم غير عدد قليل .

وكانت هذه الموقعة أعظم المواقع بين المسلمين والروم ، مـــع الفـــارق الكبير فى العدد بينهم ، ولم يثبت للروم جيش أمام المسلمين بعد ذلك ... وفـــى أثناء تلك الموقعة جاء نبأ موت أبى بكر وعزل خالد عن قيادة الجيش ، وتولية أبى عبيده القيادة ، فقبل خالد ذلك ورضخ لأبى عبيده فى الرأى والجهاد وسارا لفتح دمشق وهكذا أصبحت سوريا كلها فى أيدى المسلمين .

وقبل أن يرحل " هرقل " عن سوريا وقف على مرتفع من الأرض ، ثم التفت إلى الشام وقال يودعها الوداع الأخير " السلام عليك يا ســـوريا ســـلام لا لقاء بعده" ... وهرب إلى القسطنطينية .

الحجاج بن يوسف الثقفى

احتل الحجاج بن يوسف الثقفى (٦٦١ - ٧١٤ م) مكانة متميزة بين أعلام الإسلام ، ويندر أن تقرأ كتاباً فى التاريخ أو الأدب ليس فيه ذكر للحجاج الذى خرج من سواد الناس إلى الصدارة بين الرجال وصانعى التاريخ بملكاته الفردية ومواهبه الفذة فى القيادة والإدارة .

ولا يختلف أحد فى أنه اتبع أسلوباً حازماً مبالغاً فيه ، وأسرف فى قتل الخارجين على الدولة ، وهو الأمر الذى أدانه بسببه أكثر المؤرخين ، ولكن هذه السياسة هى التى أدت إلى استقرار الأمن فى مناطق الفتن والقلاقل التى عجز الولاة من قبله عن التعامل معها .

ولد الحجاج بن يوسف فى الطائف ، ونشأ فى أسرة كريمة من بيوت ثقيف ، وكان أبوه رجلاً تقياً على جانب من العلم والفضل ، وقضى معظم حياته فى الطائف ، يعلم أبناءها القرآن الكريم دون أن يأخذ عليه أجراً.

حفظ الحجاج القرآن على يد أبيه ثم تردد على حلقات أئمة العلم من الصحابة والتابعين ، ثم اشتغل وهو فى بداية حياته بتعليم الصبيان ، شأنه فى ذلك شأن أبيه .

لفت الحجاج أنظار الخليفة عبد الملك بن مـــروان ، ورأى فيـــه شـــدة وحزماً وقدرة وكفاءة ، وكان فى حاجة إليه ، حتى ينهى الصراع الـــدائر بينـــه وبين عبد الله بن الزبير الذى كان قد أعلن نفسه خليفة سنة (٦٤هـــ - ٦٨٣م) بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ودان له بالولاء معظم أنحـــاء العـــالم الإسلامى .

حاصر الحجاج مكة المشرفة ، وضيق الخناق على ابن الزبير المحتمى بالبيت ، وكان أصحابه قد تفرقوا عنه وخذلوه ، ولم يبق سوى قلة صابرة ، ولم تغن عنه شيئاً ، ولم تستطع الدفاع عن المدينة المقدسة التى يضـــربها الحجـــاج بالمنجنيق دون مراعاة لحرمتها وقداستها ، حتى تهدمت بعـــض أجـــزاء مـــن الكعبة، وانتهى القتال باستشهاد ابن الزبير والقضاء على دولته ، وعودة الوحدة للأمة الإسلامية التى أصبحت فى ذلـــك العـــام (٧٣ هـــــ - ٦٩٣ م) تـــدين بالطاعة لخليفة واحد ، وهو عبد الملك بن مروان .

وكان من أثر هذا الظفر أن أسند الخليفة إلى الحجاج ولايـــة الحجـــاز مكافأة له على نجاحه ، وكانت تضم مكة والمدينة والطائف ، ثم أضـــاف إليـــه اليمن واليمامة فكان عند حسن ظن الخليفة وأظهر حزماً وعزماً فى إدارته حتى تحسنت أحوال الحجاز فأعاد بناء الكعبة ، وحفر الآبار ، وشيد السدود .

بعد أن أمضى الحجاج زهاء عامين والياً على الحجاز نقله الخليفة والياً على العراق بعد وفاة أخيه بشر بن مروان ، وكانت الأمور فى العـــراق بالغـــة الفوضى والاضطراب ، تحتاج إلى من يعيد الأمن والاستقرار ، ويسوس الناس بعد أن تقاعسوا عن الخروج للجهاد وركنوا إلى الدعة والســـكون ، واشـــتدت معارضتهم للدولة ، وازداد خطر الخوارج ، وقويت شوكتهم بعد أن عجز الولاة عن كبح جماحهم .

ولبى الحجاج أمر الخليفة وأسرع فى سنة (٧٥ هـ - ٦٩٤ م) إلى الكوفة ، وفى أول لقاء خطب فى المسجد خطبة عاصفة مشهورة أنذر فيها وتوعد المخالفين والخارجين على سلطان الخليفة والمتكاسلين عن الخروج لقتال الخوارج الأزارقة .

واتبع الحجاج القول بالفعل ونفذ وعيده بقتل واحد ممن تقاعسوا عن الخروج للقتال ، فلما رأى الناس ذلك تسارعوا نحو قائدهم المهلب لمحاربة الخوارج الأزارقة ، ولما اطمأن الحجاج إلى استقرار الاوضاع فى الكوفة ، ذهب إلى البصرة تسبقه شهرته فى الحزم ، وأخذ الناس بالشدة والصرامة .

وما كاد الحجاج يقضى على فتنة الخوارج حتى شبت ثورة عارمة دامت ثلاث سنوات (٨١- ٨٣ هـ - ٧٠٠ - ٧٠٢ م) زعزعت استقرار الدولة وكان يقودها " عبد الرحمن بن الأشعث " أحد رجال الحجاج الذى أرسله على رأس حملة لإخضاع الأجزاء الشرقية من الدولة ، وبعد أن حقق ابن الأشعث عدداً من الانتصارات غره ذلك ، وأعلن العصيان ، وبدلاً من أن يكمل المهمة المنوط بها عاد ثائراً على الدولة الأموية مدفوعاً بطموحه الشخصى وتطلعه إلى الرئاسة والسلطان .

ووجد فى أهل العراق ميلاً إلى الثورة والتمرد على الحجاج ، فتلاقت الرغبتان فى شخصه ، وآزره عدد من كبار التابعين ، وحالف النصر ابن الأشعث فى جولاته الأولى مع الحجاج ، واضطرب أمر العراق وسقطت البصرة فى أيدى الثوار ، غير أن الحجاج نجح فى أن يسترد أنفاسه ، وجاء المدد من دمشق وواصل قتاله ضد ابن الأشعث ، ودارت معارك طاحنة حسمها الحجاج لصالحه وتمكن من سحق عدوه فى معركة دير الجماجم سنة (٨٣هـ-٧٠٢م) والقضاء على فتنته .

ثم عاود الحجاج سياسة الفتح ، وأرسل الجيوش المتتابعة ، واختار لها القادة الأكفاء ، مثل قتيبة بن مسلم الباهلى ، الذى ولاه الحجاج خراسان سنة (٨٥ هـ - ٧٠٤ م) وعهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد فأبلى بلاء حسناً ونجح فى فتح العديد من النواحى والممالك والمدن الحصينة ، الواقعة على حدود الصين المتاخمة لإقليم ما وراء النهر وانتشر الإسلام فى هذه المناطق وأصبح كثير من مدنها مراكز مهمة للحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند وبلاد السند.

وكان الحجاج يدقق فى اختيار ولاته وعماله ، ويختارهم من ذوى القدرة والكفاءة ، ويراقب أعمالهم ، ويمنع تجاوزاتهم على الناس ، وقد أسفرت سياسته الحازمة عن إقرار الأمن الداخلى والضرب على أيدى اللصوص وقطاع الطرق .

ويذكر التاريخ للحجاج أنه ساعد فى تعريب الدواوين ، وفى الإصلاح النقدى للعملة ، واصلاح حال الزراعة فى العراق بحفر الأنهار والقنوات ، وإحياء الأرض الزراعية ، واهتم بالفلاحين وأقرضهم ووفر لهم الحيوانات التى تقوم بمهمة الحرث وذلك ليعينهم على الاستمرار فى الزراعة .

ومن أعظم أعمال الحجاج ما أمر به نصر بن عاصم بوضع النقاط على الحروف العربية من أجل توحيد نطق القرآن الكريم ، ومنع التحريف ، وأمر بكتابة مصاحف عديدة موحدة ، وبعث بها إلى مختلف البلاد.

أول من وضع النقاط على الحروف العربية

نصر بن عاصم بناءً على طلب الحجاج بن يوسف الثقفى ... ذلـك أن رجلاً رومياً جاء إلى الحجاج وألقى بعض الأبيات الشعرية بطريقـة مضـحكة لأنها لم تكن منقوطة ونطقها على هواه فتغير المعنى تماماً ، فغضب الحجـاج وأمر بجلده ، فتوسط لدى الحجاج العالم (نصر بن عاصم) ليعفو عنـه فقبـل الحجاج شفاعة نصر وطلب منه أن يجد طريقة كى يتلافى الناس خاصة الأعاجم الوقوع فى الخطأ واللحن فى اللغة ، فكان أن وضع نصر بن عاصم النقاط فوق الحروف وتحتها على أن تكون باللون الأسود أى بنفس لون الحروف المكتوبـة حتى تختلف فى لونها عن النقاط الخاصة (بعلم النحو).

ذلك أن على بن أبى طالب كان قد طلب من أبو الأسود الدؤلى وضـع قواعد لضبط الكلمات (علم النحو) وقام أبو الأسود الـدؤلى باسـتخدام النقـاط الحمراء فى هذا المجال ، فكانت علامة الفتحة نقطة حمراء فـوق الحـرف ، وعلامة الكسرة نقطة حمراء اسفله ، وعلامة الضمة نقطة حمراء بين أجـزاء الحرف ... وهكذا .

وفى العصر العباسى قام العالم الخليل بن أحمد فعدل فى نقط أبو الأسود الدؤلى ، وجعل الضمة واواً صغيرة تكتب فوق الحرف ، والفتحة ألفاً صـغيرة

فى وضع أفقى فوق الحرف ، والكسرة ياءً صغيرة تكتب تحت الحــرف ، ثــم وضع للشدة علامة رأس الشين ، وهكذا ، وبذلك تميزت نقط الحــروف عــن علامات التشكيل . من أجل قراءة صحيحة خالية من التحريف.

أول عملة عربية

قبل الإسلام لم يكن للعرب عملة خاصة بهم ، بل عرفوا الدراهم الساسانية والدنانير البيزنطية وكان لهم محاولات لإصدار عملة عربية بدأها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم معاوية بن أبى سفيان الذى صك عملة على الطراز البيزنطى ، إلا أن هذه المحاولات لم تكن محاولات خلق وابتكار بقدر ما كانت عمليات تقليد للنقود البيزنطية والساسانية واستمرت هذه المحاولات فى التقليد إلى عهد عبد الملك بن مروان ٦٨٥ م.

ولإصدار أول عملة عربية قصة ، فقد كان بين الدولة العربية الإسلامية والدولة البيزنطية معاهدة مهادنة لمدة عشر سنوات وتقضى المعاهدة بأن تدفع الدولة العربية إتاوة سنوية للدولة البيزنطية قدرها ألف دينار من الذهب ، ويروى التاريخ أن نزاعاً نشأ بين عبد الملك بن مروان " الخليفة الأموى " وجوستنيان امبراطور الروم ، على أثر رسالة تسلمها من عبد الملك صدرها بالآية الكريمة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) ﴾ مما اغضب امبراطور الروم فقرر أن يطبع على العملة البيزنطية ما يسئ للمسلمين ، عندها قطع عبدالملك عليه الطريق وأصدر عملة عربية تساوى فى وزنها وقيمتها العملة البيزنطية ولكنها تخلو من النقوش البيزنطية ولا تحمل صورة هرقل ، بل الآية

الكريمة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) ﴾ وعلى ظهرها كتابة نصها "بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ستة وسبعون " وبذلك نجح عبد الملك في إصدار أول عملة عربية .